﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: 81 - 87]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من خطاب العقلِ إلى تقريع الأنفس وتوبيخ الغافلين

لمّا ذكرت الآيات السّابقة أوجه الاستدلال على البعث، بما خلقه الله تعالى لعباده من النِّعم النَّباتيَّة والمائيَّة والنّاريَّة، ثمَّ ذكر القرآن العظيم، وما فيه من الشَّرف والمكانة الرَّفيعة؛ ناسب الانتقال إلى خطاب المشركين؛ لزجرهم عمّا هم فيه من المداهنة، والكذب، فناسب تهديدهم باقتراب الأجل المحتوم، ونزول الموت القريب، فجاء توبيخهم ببيان قُبح موقفهم، ومقابلة نِعَم الله بالجحود، فهو انتقالٌ من خطاب العقول للاستدلال على البعث، إلى خطاب الأنفس بالتَّوبيخ والتَّقريع، فمن لم تنفعه إشارة العقل؛ ضربه سوط التَّقريع.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّدۡهِنُونَ﴾: جذر الكلمة (دهن)، وهو ما يدلُّ في اللُّغة على اللّين والطّيب والنُّعومة الظّاهرة، والدُّهنُ من المَطَر: قدرُ ما يَبُلُّ وجهَ الأرض[1]، والإدهانُ: اللّينُ والمُصانَعةُ، قال الله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القلم: 9][2]، ومنه الدُّهن الَّذي يُطلى به الجلد أو الثَّوب أو الحديد، فتزول خشونته، ويظهر بمظهر البهاء.

2) ﴿ٱلۡحُلۡقُومَ﴾: الحُلقوم مأخوذ من الجذر (حلق)، وهو ما يدلُّ

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (دهن).
(2) الخليل، العين: (دهن).

في اللُّغة على مجرى الطَّعام والنَّفَس من الحنجرة إلى الفم، وهو أعلى مدخل الحلق، وأقرب مواضع الجهاز التَّنفُّسيِّ إلى ظاهر الوجه، والحلقوم: كالحلق (فعلوم) عند الخليل، و(فعلول) عند غيره[1].

ولفظ ﴿ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ ورد في القرآن في هذا الموضع وحده؛ ليُصوِّر اللَّحظة الدَّقيقة الَّتي تتوقَّف فيها حركة الإرادة، وتفلت النَّفس من سلطان الجسد، ويتحوَّل الإنسان إلى مخلوقٍ ناظرٍ لا فاعلٍ، حاضرٍ لا متصرِّف.

3) ﴿مَدِينِينَ﴾: الكلمة مأخوذة من الجذر (دين)، الَّذي تدور معانيه حول الجزاء، والمحاسبة، والخضوع، والانقياد، وجمع الدَّين دُيون، وكلُّ شيءٍ لم يكن حاضرًا فهو دَينٌ[2]، وأدَنتُ فلانًا أدينُه، أي: أعطيتُه دَينًا، ورجلٌ مَديون: قد رَكِبَه دَينٌ، ومَدينٌ أجوَدُ[3].

و(مَدين) على هذا، هو مَنْ خوطب بالحساب، أو خضع لسلطةٍ تُحاسبه، أو جُعل تحت سلطانٍ يُجزيه، فهو إمّا مَدينٌ بالذَّنب، أي: مَجزيٌّ عليه، أو مَدينٌ بالحكم، أي: خاضعٌ لسلطان من فوقه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، أي: أفتُسايرون هذا الوحي، وتُهَوِّنون أمره، وتُظهرون اللّين والتَّأجيل حياله، كأن لا وزن له ولا وجوب في عنقكم؟ إنَّه استفهامٌ إنكاريٌّ، يوبِّخهم على ضعف موقفهم من القرآن؛ إذ لم يُكذِّبوه صراحة فقط، بل تهاونوا في حقِّه، وتهاونوا في العمل بمقتضاه، قال ابن عطيَّة: أجمع المفسِّرون على أنَّ الآية: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ توبيخ للقائلين في المطر الَّذي يُنزله الله رزقًا: هذا بنوء كذا وكذا[4].

ثمَّ زادهم تقريعًا بقوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، أي: بدل أن تشكروا الله على رزقه الظّاهر في نِعَم الزَّرع والماء والنّار، قابلتم هذا الفضل بجريمة التَّكذيب،

(1) ابن سيده، المحكم، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (حلق).
(2) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم: (دين).
(3) الخليل، العين: (دين).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 222.

وجعلتم ردَّ الفضل بالتَّكذيب دينًا لكم، ثمَّ ينقلهم السّياق إلى مشهدٍ حاسم لا ينفع فيه تردُّد، ولا تقبل فيه مداهنة: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾، أي: هلّا تُرجِعون الرّوح؛ إذا بلغت الغاية، وقد عجزتم عن الإمساك بها، ثمَّ يأتي التَّحدّي: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، أي: إن كنتم تظنّون أنَّكم غير خاضعين لحساب، ولا مملوكين لله، فلِمَ لا تردّون الرّوح إلى الجسد؟

تصعيد الخطاب في ختام السّورة من عرض النِّعم إلى تقريع المُنْعَّمين

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا﴾:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، هو استفهام إنكاريٌّ توبيخيٌّ[1]، يُراد به نفي الوقوع على وجه التَّقريع والتَّهكُّم، لا مجرَّد الاستفهام الحقيقيِّ، وقد جاء بعد تقرير عظمة القرآن وشرفه، ثمَّ أعقب ذلك بهذا الاستفهام؛ ليدلَّ على شدَّة التَّباين بين عظمة المُنَزَّل وبين موقفهم منه.

إنكارُ وقوع المداهنة بالحقِّ وتقريع من استسهل ذلك

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ هي فاء التَّفريع على ما سيق لأجله الكلام الَّذي قبلها في غرضه من التَّنويه بشأن القرآن، وهو الَّذي بحذو الفاء، أو من إثبات البعث والجزاء، وهو الَّذي حواه معظم السّورة، وكان التَّنويه بالقرآن من مسبِّباته، وأطبق المفسِّرون - عدا الفخر - على أنَّ اسم الإشارة وبيانه بقوله: فبهذا الحديث مشيرًا إلى القرآن لمناسبة الانتقال من التَّنويه بشأنه إلى الإنكار على المكذِّبين به، فالتَّفريع على قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾[2].

تفريع المعاني الجزئيَّة على السّوابق الكلّيّة ترابطٌ أسلوبيٌّ واتِّحاد دلاليٌّ

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 28/ 425.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 337.

نوع الباء ودلالتها:

الباء في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ للسببيَّة، والمعنى: أفيكون هذا القرآن - مع ما فيه من الوضوح والعلوِّ والعظمة والتَّنزيل من ربِّ العالمين - هو ما تدهنون فيه؟ أي: أتجعلونه موضع مجاملة وتكذيب وتخفيف حتَّى لا تصطدموا بأهواء قوم أو مصالح دنيا؟ فكأنَّ القرآن هو سبب الإدهان، والأصل أن يكون سبب الإيمان.

القرآن سبب الإيمانِ لا سبب الإدهان

دلالة استعمال اسم الإشارة للقريب (هذا):

استعمال اسم الإشارة (هذا)، في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، يُفيد أنَّه حاضر بين أيديهم، معلوم لديهم، لا غموض فيه ولا خفاء، ومع ذلك يُداهنون بشأنه، ويعرضون عنه، وهو ما يزيد توبيخهم وتقريعهم، وفي هذا التَّعبير شيء من التَّهكُّم على موقفهم؛ لأنَّهم يتعاملون مع حديث بهذه العظمة - بعد أن بُيِّن أنَّه تنزيل من ربِّ العالمين، محفوظ في كتاب مكنون، لا يَمَسُّهُ إلّا المُطَهَّرونَ - كما لو كان حديثًا عاديًّا يُداهَن فيه، أو يُكذَّب به، فاسم الإشارة هنا يُبرز شدَّة المفارقة بين قدر القرآن العظيم وبين استخفافهم به، ويُصوِّر الحالة النَّفسيَّة الَّتي بلغوا إليها من الجحود.

المُداهن الغافل يستحضر معاني القرآن ماثلة أمامه، وهو شديد المباغضة

بلاغة العدول عن الإضمار إلى اسم الإشارة:

العدول عن الإضمار إلى اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، يحمل بلاغةً دقيقة تؤدّي معانيَ لا يوصل إليها الضَّمير وحده، فاسم الإشارة يستدعي التَّنبيه والإشارة الحسّيَّة، وهو أقوى في الحضور الذِّهنيِّ من الضَّمير؛ لأنَّ الضَّمير يعود على معلوم، بينما اسم الإشارة يُبرِز المشار إليه، ويُفرده بالذِّكر، وفي هذا الموضع، أراد السّياق إبراز عظمة القرآن في مقابل استهانة المكذِّبين به، فجاء العدول البلاغيُّ؛ ليُعرّي موقفهم، ويُقبِّح صنيعهم؛ إذ كيف يُداهَن في أمرٍ كهذا الحديث الجليل؟ وكيف

العدول عن الإضمار إلى اسم الإشارة لتعظيم والتَّقريع

يُتَّخذُ موضعُ التَّوكيد والمدح والتَّفخيم موضعَ مداهنة ومسايرة؟ فكان في اختيار اسم الإشارة تنويهٌ بالقرآن، وزيادة في التَّعريض على المخاطَبين[1].

تعيين مرجع اسم الإشارة:

اسـم الإشـارة يرجع إلى جملة الـقـرآن لا إلى بعض أجزائه

أجمع جمهور المفسِّرين على أنَّ اسم الإشارة عائد على القرآن نفسه، وأنَّ المراد بـ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ هو ما سبق وصفه بأنَّه (قرآن كريم)، وأمّا الفخر الرّازيُّ؛ فقد انفرد برأي مخالف؛ إذ رأى أنَّ الإشارة عائدة إلى ما صدر من المكذِّبين من قولهم: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾، فزعم أنَّ الحديث المشار إليه هو أقوالهم، وأنَّ "المداهنة" كانت لترضية بعضهم بعضًا بهذا الباطل، لا تجاه القرآن، إلّا أنَّ هذا الرَّأي مرجوح؛ إذ لا يناسب السّياق الَّذي يتحدَّث عن عظمة القرآن، ويُتابع في الرَّدِّ على من كذَّب به، فالمقام مقام تعظيم للحديث الإلهيِّ، لا للحديث البشريِّ، ولهذا، فإنَّ البلاغة في العدول عن الإضمار إلى اسم الإشارة هي بلاغة توكيد وتعظيم وتنبيه، تُؤدّي وظيفة مقصودة في سياق بيان تقصير المكذِّبين، وتزيد النَّصَّ إشراقًا وقوَّة في الحُجَّة والبيان[2].

غرض اختيار لفظ ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾:

توبيخ المخاطَبين وإحداث التَّأثير السَّمعيِّ

في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، جاء اختيار لفظ ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ بدلًا من (القرآن)، مع أنَّ السّياق السّابق كان يُمهِّد لعظمة القرآن الكريم؛ لحكمة بليغة تتَّصل بطبيعة الخطاب والغاية البلاغيَّة منه، فإنَّ في العدول إلى ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ – مع كونه يُعبِّر عن ذات الكتاب المُنزَّل – تنبيهًا إلى أثره في الأسماع، وطبيعته في التَّلقّي البشريِّ، فهو في ظاهر شأنه حديث يُتلى، وكلام يُسمع، ممّا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 337.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 435.

يُفترض أن يكون موضع إصغاء واعتبار وتأثُّر، لكنَّهم على النَّقيض لم يقابلوه بالتَّلقّي والتَّوقير، بل قابلوا هذا ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ بالإعراض والمداهنة، فجاء التَّعبير به لا ليهوِّن من شأنه، بل ليوبِّخهم من حيث ما يُنتظر منهم من فطرة السَّمع والتَّأثُّر بالكلام البيِّن، ففي استعمال ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ نوع من التَّهويل التَّوبيخيِّ؛ إذ يُسأل القوم: أبهذا الحديث العظيم الَّذي تُنذَرون به، وتُذكَّرون، وتُحذَّرون، يكون منكم الإدهان؟.

بلاغة التَّعريف بـ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾:

التَّعريف في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ جاء بلام العهد[1]، وهو يفيد أنَّ المشار إليه حديث معروف ومعلوم للمخاطَبين، لا خفاء به ولا اشتباه، وهو القرآن الكريم الَّذي سبق ذكره في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾.... ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فالتَّعريف هنا يحمل قوَّة الحُجَّة؛ إذ يوجِّه لهم الإنكار على تقصيرهم في حقِّ شيء معروف لهم حقَّ المعرفة، لا يُعذَرون في الجهل به أو التَّوقُّف عنده.

بلاغة التَّعريف بلام العهد لإحكام الحجَّة وتعظيم شأن القرآن

والتَّعبير بـ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ معرَّفًا يُفيد أيضًا في هذا الموضع تعظيم شأنه من جهة، والتَّقريع من جهة أخرى؛ لأنَّ الحديث إذا عُرِّف؛ صار أرسخ في الذِّهن، وألزم في الحُجَّة، والمعنى: هذا هو الحديث الَّذي لا حديث فوقه، ولا بيان بعده، فكيف يُداهَن فيه، أو يُكذَّب به؟.

بلاغة تقديم الجار والمجرور على الاسميَّة:

في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، جاء تقديم الجار والمجرور (بهذا الحديث) على الاسم ﴿أَنتُم﴾ والمسند ﴿مُّدۡهِنُونَ﴾، على خلاف مقتضى الأصل في التَّركيب؛ إذ كان مقتضى التَّرتيب الظّاهر أن يُقال: (أفأنتُم مُدهِنونَ بهذا الحديث)، وفي هذا التَّقديم

تقوية معنى التَّقريع والتَّوبيخ بأن يكون الإدهان لهذا الحديث

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 338.

توجيه مقصود يُراد به تعيين موضع الإنكار وتغليظ النَّكير، فقد أُريد تسليط الإنكار على كون الإدهان واقعًا في حقِّ هذا ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ لا في غيره، فكأنَّما يُلقى السُّؤال - في معرض التَّوبيخ - عن أمر عجيب: أبهذا الحديث العظيم، الَّذي عُرِف قدره، وارتفع ذكره، وبلغ من العظمة أن يُقسم الله بمواقع نجومه، ويصفه بأنَّه (قرآن كريم)، و﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أتجعلونه أنتم موضع المداراة والتَّساهل؟.

فائدة الجملة الاسميَّة ﴿أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾:

المدهنون ثابتون في المراوغة مستقرّون في مستنقع الاستخفاف بالحقِّ

الجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾؛ جاءت لتفيد الثُّبوت والاستمرار[1]، وهي في مقام التَّوبيخ والإنكار، فجاء الأسلوب أقوى وأرسخ ممّا لو قيل: (أفتدهنون بهذا الحديث؟)؛ إذ إنَّ الجملة الاسميَّة تُفيد أنَّ حالهم هذا ليس طارئًا ولا عابرًا، بل هو أمر مستقرٌّ في نفوسهم، متمكِّن من سلوكهم، فهُم قد جعلوا الإدهان والتَّهاون والتَّنازل عن الحقِّ شأنًا ثابتًا لهم مع هذا الحديث العظيم.

وقد جاء ذكر ﴿أَنتُم﴾ ظاهرًا في الجملة لا مستترًا؛ ليدلَّ على التَّخصيص والتَّقريع، أي: أنتم بالذّات، دون غيركم، مَن يقف هذا الموقف الشّائن من القرآن، وكأنَّ في ذلك تعريةً لموقفهم على رؤوس الأشهاد، زيادة في التَّوبيخ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿مُّدۡهِنُونَ﴾ مادَّة وصيغة:

المداهنةُ مأخوذة من الدَّهن الَّذي هو للمداهن كالدُّهن للجسد

جاء اختيار لفظ ﴿مُّدۡهِنُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾؛ لما فيه من دقَّة في كشف حال المخاطَبين، فـ(الإدهان) في أصل مادَّته (دهن) يدلُّ على التَّليين والتَّغطية[2]، ثمَّ استُعمِل مجازًا في المداراة والمسايرة مع كتمان الحقِّ، لا عن اقتناع، بل اتقاءً للشِّدَّة أو طلبًا للسَّلامة، فدلَّ على أنَّ القوم لا يرفضون القرآن صراحة،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 339.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 429.

بل يداورون ويلوِّنون موقفهم منه، والمداهنة مأخوذة من الدَّهن، فكأنَّ المداهنة جزء من ذواتهم، كالدُّهن جزء من الأبدان، ويُرشِّح معنى الرُّسوخ مجيئها بصيغة اسم الفاعل ﴿مُّدۡهِنُونَ﴾ لا بالفعل؛ للدَّلالة على الرُّسوخ والثَّبات، أي: إنَّ الإدهان صار سمةً لهم، لا فعلًا عارضًا، وهذه الصّيغة تصفهم بوصفٍ مستمرٍّ، فاضحٍ لحالهم، لا مجرَّد موقف عابر.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ﴾:

العطف بالواو للجمع بين جريمتي الإدهان والتَّكذيب في آن

في قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، جاء العطف بـ(الواو) في ﴿وَتَجۡعَلُونَ﴾، فجملة: (تجعلون) في محلِّ رفع معطوفة على الخبر (مدهنون)[1]، وهذا ما جرى عليه المفسِّرون، فتكون هذه الجملة عطفًا على جملة: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ عطفَ الجملة على الجملة، فتكون داخلة في حيِّز الاستفهام ومستقلَّة بمعناها، والمعنى: أفتجعلون رزقكم أنَّكم تكذِّبون[2]؛ ليفيد الجمع بين حالتين متلازمتين في موقفهم من الوحي، فالإدهان من جهة، والتَّكذيب من جهة أخرى، لا على سبيل التَّرتيب أو التَّدرُّج، بل على وجه الجمع بين جريمتين متكاملتين، تكشف كلُّ واحدة منهما جانبًا من الانحراف.

فجاء العطف لا ليفصل بين الفعلين، بل ليُظهر التَّضادَّ بين حقِّ النِّعمة وسوء المقابلة، والمعنى: أنتم تدهنون في حقِّ القرآن، وتكذِّبون به مع أنَّه مصدر رزقكم، فكأنَّما جُمعت المداهنة والتَّكذيب في سياق واحد لتُدين سلوكًا مركَّبًا، ظاهره اللّيونة وباطنه الجحود.

نوع الجعل في قوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، جاء فعل

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 27/ 130.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 339.

(تجعلون) من باب الجعل القلبيِّ الاعتقاديِّ، لا الجعل الإنشائيِّ أو التَّحويليِّ، والفعل (جعل) من أفعال القلوب، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزّخرف: 19]، أي: ظنّوهم، واعتقدوهم[1]، فهو من جعل القلوب لا جعل الأعيان، أي: هو جعلٌ معنويٌّ يُصوِّر ما استقرَّ في نفوسهم من فساد في القصد واضطراب في القيم، فجعلوا التَّكذيب هو الشُّكر، والكفر هو الجزاء، والافتراء هو التَّقدير.

نسبة الرِّزق إلى غير الله تعالى تصييرٌ اعتقاديٌّ وتحويلٌ وجدانيٌّ عن الحقِّ إلى الباطل

وقد اختير هذا الفعل لما فيه من معنى التَّمكين والتَّرتيب القصديِّ؛ إذ ليس مجرَّد صدور فعل التَّكذيب منهم، بل جُعِلَ له المقام، ورُتِّبت له المنزلة، حتَّى صار عندهم بمنزلة ما يُقابل الرِّزق، أو يُقابل الشُّكر على الرِّزق، فكأنَّ الآية تقول: بدل أن تجعلوا حظَّكم من النِّعمة هو الاعتراف بالمنعِم، شكرًا أو إيمانًا؛ إذا بكم تجعلونه التَّكذيب، وهو أشنع ما يكون من صرف النِّعمة عن وجهها.

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع (تجعلون):

في قوله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، جاء التَّعبير بالفعل المضارع (تجعلون) لا الماضي؛ لما في المضارع من دلالة على الاستمرار والتَّجدُّد؛ لأنَّه يدلُّ على الحال والاستقبال[2]، ففعلهم لا ينقطع، بل هو دَيدَنٌ قائم، وسلوك متكرِّر، لا حادثة عارضة، فهو يُصوِّر حالًا راسخة في نفوسهم، لا فعلًا جزئيًّا وقع، وانقضى.

من وأدَ الحقَّ بالباطل؛ اقترب من الرُّسوخ في التَّكذيب والثَّبات على الافتراء

والمضارع يرسم ملامح حركة زمنيَّة حاضرة مستمرَّة، فيها تجدُّد التَّكذيب مع تجدُّد النِّعمة، كلَّما رُزقوا نعمةً من الله؛ قابلوها بجحود، وكلَّما جاءهم ذكر من الرَّحمن؛ واجهوه بالتَّكذيب والمكابرة، فكأنَّ تكذيبهم رزقهم الدّائم، وشكرهم المستمرُّ.

(1) ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك: 1/ 150.
(2) المُبرِّد، المُقتضب: 2/ 2.

بلاغة المجاز بالحذف في قوله: ﴿رِزْقَكُمْ﴾:

بلاغة حذف المضاف في (رزقكم) وإقامة الاسم مقام المعنى لتغليظ التَّقريع

في قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ مجاز بالحذف، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ إذ أُقيم المسبَّب مقام السَّبب، أو المفعول مقام الفاعل، على وجه من البلاغة الدَّقيقة، فالمراد ليس (جعل الرِّزق نفسه) تكذيبًا، بل جعل مقابل الرِّزق، أي: شكر الرِّزق وثمرته ومعناه، هو التَّكذيب، والتَّقدير: وتجعلون شكر رزقكم[1]، أي: وضعتم التَّكذيب موضع الشُّكر، قيل: نزلت في الأنواء ونسبتهم السُّقيا إليها، والرِّزق: المطر، يعني: وتجعلون شكر ما يرزقكم الله من الغيث أنَّكم تكذِّبون بكونه من الله؛ إذ تنسبونه إلى النُّجوم[2].

دلالة إضافة الرِّزق إلى الضَّمير:

بلاغة إضافة (الرِّزق) إلى المخاطَبين في (رزقكم)؛ للكشف عن توهُّم التَّملُّك وتعميق التَّوبيخ

في قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، جاءت إضافة (الرِّزق) إلى ضمير المخاطَبين: ﴿رِزْقَكُمْ﴾، بمعنى اللّام، أي: الرِّزق الَّذي جعله الله لكم، فتنتفعون به؛ لتشكروه، فالإضافة هنا تُقرِّر ما يظنُّه القوم لأنفسهم، لا ما هو الحقُّ في نفسه؛ لأنَّهم حين نسبوا النِّعمة إليهم، وظنّوا أنَّ الرِّزق حظٌّ ذاتيٌّ، أو كسب مستقلٌّ، ولم يربطوه بالمنعِم، ولم يُقرّوا بفضل الواهب، فالآية تُكلِّمهم على قدر ما يعتقدون: أنتم تعدّون هذا الرِّزق رزقكم، شيئًا يخصُّكم، ويدور عليكم، فكان الأليق بكم أن تشكروه، لا أن تجعلوا مقابلته التَّكذيب.

دلالة ذكر التَّكذيب بالحديث لا الكفر به:

في قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، عُبِّر بـ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ بدلًا من (تكفرون)؛ لأنَّ التَّكذيب أخصُّ وأشدُّ؛ إذ يدلُّ على جحود متعمَّد للحقِّ بعد ظهوره، لا مجرَّد إنكار عن جهل،

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 425.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 468.

وهو أنسب للسّياق؛ إذ جاء بعد بيان عظمة القرآن ووصفه بـ(قرآن كريم) و﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فكان المتوقَّع التَّصديق، فإذا بهم يُكذِّبون، فناسب أن يُؤخذوا بأقبح وجوه الرَّدِّ.

التَّكذيبُ مبدأ الكفرِ ومظهر الكفران ومضيعة الحقِّ وسبيل الخسران

كما أنَّ التَّكذيب هو اللَّفظ الملائم مع ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾؛ لأنَّ الحديث يُقابَل بالتَّصديق أو التَّكذيب، لا بالكفر والإيمان، فجاء التَّعبير دقيقًا في تصوير موقفهم، لا من جهة العقيدة فقط، بل من جهة السُّلوك العمليِّ الماكر المتعمد لردِّ الوحي، فقوله: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، تقولون: أُمطِرنا بنوء كذا وكذا، وبنجم كذا وكذا، وأكثر الرِّوايات أنَّ قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ نزل في القائلين: مُطِرنا بنوء كذا[1].

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿تُكَذِّبُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، جاء الفعل بصيغة المضارع لا الماضي؛ لما في ذلك من دلالة على الاستمرار والتَّجدُّد؛ لدلالته على الحال والاستقبال[2]، فتكذيبهم بالقرآن ليس فعلًا مضى، وانقضى، بل هو عادة متكرِّرة، وسلوك دائم، يجري على ألسنتهم، ويتكرَّر في مواقفهم، ولو صدر عنهم مرَّة واحدة، ولم يرجعوا عنه، فهُم مستمرّون فيه، بتجدُّد اعتقاد الباطل، وتثبيت عرى النُّكران.

المضارع يُصوِّر خفايا النُّفوس، ويفضح نيّات القلوب

وهذا الاختيار البلاغيُّ يصوِّرهم في حالٍ من الثَّبات على الجحود، لا ينقطعون عنه، فكأنَّهم كلَّما سمعوا الذِّكر، قابلوه بتكذيب جديد، حتَّى صار دأبهم ومقامهم، فالمضارع هنا لا يصف زمنًا فقط، بل يكشف طبيعة نفوسهم المستمرَّة في ردِّ الحقِّ، ويجعل جرمهم حيًّا متجدِّدًا لا يُمحى.

---

(1) أخرج مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: "مُطِر الناس على عهد رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر»، قالوا: هذه رحمة وضعها الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا، فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾"، صحيح مسلم، حديث رقم: (73).

(2) الزّمخشريّ، المفصّل: 2/ 137.

غرض التَّعبير بصيغة التَّضعيف ﴿تُكَذِّبُونَ﴾:

التَّكذيب حالٌ مصاحبٌ للكافر وسمةٌ راسخةٌ في المنافق

في قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، جاء التَّعبير بصيغة التَّضعيف (تُفَعِّلون) من البناء (كذَّب)، لا بصيغة (تكذبون) الخفيفة؛ لما في التَّضعيف من دلالة بلاغيَّة أبلغ وأعمق، فالفعل ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ - بصيغته المشدَّدة - يدلُّ على المبالغة والتَّكرار والتَّمادي، لا على مجرَّد حصول الفعل مرَّةً أو على وجه العفويَّة، كما أنَّ التَّكذيب هو فيما يخصُّ الآخرين، بينما الكذب فهو الصّادر عن الكاذب، ففرقٌ بين مكذِّبٍ غيرَه، وكاذب.

غرض حذف المتعلَّق بـ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾:

من كذَّب بالحقِّ؛ فهو لكلِّ صدق مكذِّب

حُذِف المتعلَّق بفعل التَّكذيبِ في قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، فجاء مطلقًا خاليًا من التَّقييد؛ وذلك للإيجاز في إرادة التَّهويل والتَّعميم معًا، ثمَّ إنَّ ترك الفعل دون مفعول يوسِّع دائرته، فيدلُّ على أنَّ تكذيبهم لا يقتصر على الحديث وحده، بل يشمل ما هو أوسع من ذلك: يكذِّبون بالقرآن، وبالنَّذير، وبالرَّسول، وبالبعث، وبآيات اللّه، بل ربَّما كذَّبوا بالحق؛ كلَّما جاءهم، أيًّا كان مصدره، أو لتنزيل المتعدّي منزلة اللّازم، وذلك لقصد إثبات الفعل في ذاته للفاعل[1]، فسلوكهم التَّكذيب.

نوع الفاء ودلالتها:

بلاغة الفاء التَّعقيبيَّة في (فَلَولا إذا بَلَغَتِ الحُلقومَ)، ودلالتها على السَّببيَّة والتَّحدّي

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ متفرِّعة على ما قبلها من ذِكر مداهنتهم بالقرآن وتكذيبهم به، "فالتَّفريع على جملة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وهو أنَّ عجزهم عن إرجاع الرّوح عند مفارقتها الجسد ينبِّههم على أنَّ تلك المفارقة مقدَّرة في نظام الخلقة، وأنَّها لحكمة"[2].

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 98.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 342.

والمعنى: فإذا كنتم تكذِّبون، وتدَّعون أنَّ ما يُتلى عليكم ليس من عند الله، وأنَّه باطل لا حقَّ له عليكم، فلمَ لا تُظهرون قدرتكم عند النِّزاع، حين تبلغ الرّوح الحلقوم؟ وانتزاع أرواحكم منكم قهرًا، فالفاء إذًا تكشف مقام التَّحدّي، فهي لا تفيد مجرَّد الانتقال، بل تُظهر أنَّ ما بعدها نتيجة لازمة لما قبلها من التَّكذيب، على وجه التَّوبيخ والإنكار عليهم[1].

فائدة استعمال حرف التَّحضيض:

توبيخُ المخاطَبين وإلزامهم الحجَّة بأمرٍ ينزل عليهم، فلا يستطيعون منه مهربًا

أداة (لولا) في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، للتَّحضيض والامتناع - لتدلَّ على توبيخٍ في صورة تحضيضٍ ساخر، فهي لا تحضُّهم حقيقةً، بل تحضُّهم تعجيزًا وتقريعًا[2]، كأنَّها تقول: هلّا أظهرتم قدرتكم حين بلغت الرّوح الحلقوم؟ إن كنتم كما تزعمون في تكذيبكم، أنَّكم تملكون أمركم، وتتحكَّمون في مصيركم؟.

فـ(لولا) هنا ليست تحضيضًا خالصًا، كما في مقام الطَّلب الصّادق، بل هي تحضيضٌ يُراد به الإفحام والإلزام؛ لأنَّ المقام مقام تحدٍّ لا تعليم، وقد سبقتها فاء التَّفريع الَّتي نقلت الحديث من وصف حالهم في التَّكذيب إلى مشهد النِّزاع عند الموت؛ لتُقابل ادِّعاءهم بالواقع القاهر، ثمَّ إنَّ هذا التَّحضيض يُضمر إنكارًا، لِمَ لم تردّوا الرّوح، وتمنعوا الموت؛ إذا كنتم صادقين في دعواكم؟ فأداة (لولا) تقوم مقام الاحتجاج الحيِّ، وتقيم الحجَّة من مشهدٍ لا يستطيع أحدهم إنكاره أو دفعه، وهو مشهد الموت حين يُعجز فيه البشر، ويظهر ضعفهم ظاهرًا لا يُجادَل فيه.

دلالة استعمال ﴿إِذَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، جاء استعمال ﴿إِذَا﴾

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 342.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 427.

بدلًا من (إن)؛ لما في (إذا) من دلالة على التَّحقيق والوقوع الثّابت، بخلاف (إن) الَّتي يُؤتى بها غالبًا في مقام الشَّكِّ أو الفرض[1].

نزول الموتِ حتمٌ لازم ودفعه مُحال جازم

فـ(إذا) ظرف يُستعمَل في الوقائع المحقَّقة المنتظرة أو المتكرِّرة، والمقام هنا يتحدَّث عن موتٍ محتوم لا يُنكَر وقوعه[2]، فهو ليس أمرًا محتملًا حتَّى يُعبِّر عنه بـ(إن)، بل هو واقع مشهود، يُرى عند كلِّ محتضر، ويُعاين عند كلِّ خروج روح، فلا شكَّ فيه ولا في مجيئه؛ لهذا كان استعمال ﴿إِذَا﴾ أبلغ وأوقع؛ لأنَّه يضع المخاطَبين في مواجهة مباشرة مع لحظةٍ لا يستطيعون دفعها، فهي آتية حتمًا، وشهودها قائم فيهم، فكأنَّ الكلام يقول لهم: هلّا أظهرتم سلطانكم عند وقوع هذا الحدث المحقَّق؟ لا عند فرضٍ بعيدٍ أو غيبٍ مجهول؟.

نكتة تقديم ﴿إِذَا﴾ الَّتي هي معمول ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾:

تهويل المشهد وتشويق السّامع قبل التَّحدّي المختلط بالوعيد القريب

في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، جاءت ﴿إِذَا﴾ متقدِّمة في الظّاهر، وهي في الأصل معمول للفعل المتأخِّر ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾، والتقدير: (فلولا ترجعونها؛ إذا بلغت الحلقوم)، ولكنَّ تقديم الظَّرف هنا ليس على خلاف النَّظم فحسب، بل هو من أدقِّ نُكَت البلاغة القرآنيَّة، فقوله: ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ ظرف متعلِّق بـ ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾ مقدَّم عليه لتهويله والتَّشويق إلى الفعل المحضوض عليه[3]، وهذا التَّقديم يفيد أوَّلًا التَّشويق والتَّعليق الذِّهنيَّ[4]؛ إذ يُعلِّق السّامع بما سيحدث عند هذه اللَّحظة الحرجة، لحظة بلوغ الرّوح الحلقوم، وهي لحظة مشهودة عظيمة الرَّهبة، فكان في تقديم الظَّرف تصوير لمشهد الموت قبل طرح التَّحدّي، ممّا يُهيّئ النَّفس لقبول الحجَّة، وينقلها من مقام النَّظر العقليِّ إلى مشهد الحسِّ العينيِّ،

(1) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 9/ 4.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 149.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 343.
(4) حسن طبل، علم المعاني، ص: 129.

وهو يُضفي على السّياق ثانيًا جوًّا ثقيلًا ضاغطًا؛ إذ يجعل لحظة النِّزاع كأنَّها المفتاح الَّذي يُبنى عليه التَّحدّي والعتاب، فبدأ بها قبل أن يُطرح الطَّلب المستحيل: ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فكان التَّعبير: فلولا إذا بلغت الحلقوم؛ ترجعونها، أشدَّ وقعًا من: فلولا ترجعونها؛ إذا بلغت.

بلاغة استعمال مفردة ﴿بَلَغَتِ﴾:

جاء اختيار الفعل ﴿بَلَغَتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾، بدلًا من نحو: (وصلت)، أو (أتت)، أو (حضرت)؛ لما في مفردة (البلوغ) من دلالة بلاغيَّة دقيقة، تُناسب المقام، وتُجسِّد اللَّحظة بأقصى درجات التَّوتُّر والرُّعب، فـ(بلغت) في أصل معناها تدلُّ على الوصول إلى غايةٍ نهائيَّة بعد مسير أو تقدُّم تدريجيٍّ[1]، ومن هنا كانت أنسب الألفاظ للتَّعبير عن الرّوح حين تبلغ من الجسد أقصى ما يمكن أن تبلغه في طريق خروجها، وهو الحلقوم، فهي لا تزال في الجسد، لكنَّها وصلت إلى حدِّ المغادرة؛ إذ لا بقاء بعدها ولا رجوع، وفي هذا الفعل ملمحٌ آخر: إذ يحمل معنى الاحتكاك بالحافَّة، أو الولوج في الخطر، فالرّوح قد قاربت على النَّفاد، فـ﴿بَلَغَتِ﴾ هنا أبلغ من (وصلت)؛ لأنَّ البلوغ يتضمَّن بلوغ حدٍّ مشهود، متوتِّر، تنقطع فيه الحيلة، لا مجرَّد الحضور.

بلوغُ الرّوح الحلقومَ تنهيةٌ في مشهدِ الحياة الرَّتيبة وتصوير الموتة البليغة

تعيين مرجع الضَّمير في قوله: ﴿بَلَغَتِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾، الضَّمير في ﴿بَلَغَتِ﴾ مؤنَّثٌ غائب، وهو عائد في التَّقدير إلى (الرّوح)[2]، وإن لم يُصرِّح بها لفظًا، بل حُذِفت إيجازًا؛ لدلالة السّياق عليها، وهو من أبلغ الحذف البيانيِّ في نظم القرآن؛ ذلك أنَّها تحاكي النَّفس

الرّوح أعزُّ من أن يغفل الإنسان عن إرادتها في سياق التَّهديد

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/ 302.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 468.

العزيزة عليها روحها، والمستأثرة بهذه الحياة على الآخرة لأجل تمتيع روحٍ فانية.

وقد استُغني عن ذكر الرّوح صراحةً؛ لأنَّ المقام والمشهد يُغنيان عنها، فكلُّ سامعٍ يدرك أنَّ البلوغ إلى الحلقوم إنَّما هو من الرّوح عند مفارقة الجسد، خصوصًا مع ما يتلوه من قوله: ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾، أي: ترجعون الرّوح، فهي مذكورة بضميرها لا باسمها؛ لتُفاجئ النَّفس بوقوع الحدث دون تمهيد، وكأنَّ السّياق يقتحم وجدان السّامع بلحظة حاسمة لا تحتمل التَّفصيل.

بلاغة الاستعارة في فاعل ﴿بَلَغَتِ﴾:

أُسنِد فعل ﴿بَلَغَتِ﴾ إلى محذوفٍ في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، فإنَّ الفاعل المستكنَّ في الفعل ﴿بَلَغَتِ﴾ – وهو ضمير مؤنَّث – عائد إلى (الرّوح)؛ لتصوير أنَّها ذاتٌ فاعلة تمضي نحو غاية محدَّدة، لا مجرَّد نفس تُسحَب، أو تفارق قسرًا.

الرّوح تسير في طريق بلوغها الذِّروة في استعارة مكنيَّة تخييليَّة

وهنا تبرز بلاغة الاستعارة في هذا الإسناد، فقد أُسنِد الفعل إلى الرّوح إسنادًا مجازيًّا، لا على الحقيقة؛ إذ إنَّ الرّوح لا تبلغ باختيارها، بل تُقبَض قهرًا، فجَعْلُ الرّوح مجازًا كأنَّها هي الَّتي تسير، وتبلغ، وتقطع المسافة نحو الحلقوم، استعارةٌ تمثِّل لحظة الموت في صورة شيء يتحرَّك بنفسه، ويخترق الجسد حتَّى يصل إلى الحلق، وفي ذلك تشخيصٌ مرهوب لما لا يُرى، وتجسيد لحالة لا تُمسك، والاستعارة مكنيَّة تخييليَّة.

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلۡحُلۡقُومَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، جاءت (الـ) في لفظ ﴿ٱلۡحُلۡقُومَ﴾؛ لتعريف هذا الموضع من البدن، وهي على التَّحقيق (الـ) للعهد الجنسيِّ[1].

(الـ) للعهد الجنسيِّ واستدعاؤها لمشهد النَّزع المهيب

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 344.

وقد اختير هذا التَّعريف للعهد، لا ليدلَّ على الحلقوم بوصفه عضوًا فقط، بل بوصفه المرحلة الحاسمة الَّتي لا يُجاوزها الإنسان إلّا مفارقًا للحياة، فهي ليست لأجل تعريفٍ طبّيٍّ أو وصفيٍّ، بل لأجل استدعاء مشهد معروف ومُهيب في الذِّهن والنَّفس، يُشاهَد عند كلِّ محتضَر، فتغدو (الـ) بوابة إلى صورةٍ مألوفةٍ مرهوبة، لا تحتاج إلى مزيد بيان.

ومن هنا، كانت (الـ) في ﴿ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ وسيلة من وسائل الإيجاز البيانيِّ والتَّصوير الذِّهنيِّ، تنقل المخاطَب فورًا إلى مشهدٍ يشهده النّاس، ولا يملكون له دفعًا، فتُسهم في تعميق أثر السّياق، وتؤطِّر لحظة النَّزع بإطارٍ من الهلع والتَّقريع، ممّا ينسجم مع مقام التَّحدّي والتَّوبيخ في الآيات.

نوع الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَأَنتُمۡ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ﴾ واو الحال، فهي تُفيد أنَّ الجملة بعدها في موضع الحال من الجملة الَّتي قبلها، أي: من قوله: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، فكأنَّ المعنى: فلولا إذا بلغت الرّوح الحلقوم، وأنتم في تلك اللَّحظة تنظرون.

ترجمة موقف النّاظرين الأحياء دون قدرةٍ على تدارك بلوغ الرّوح حلقومها

ودلالة هذه الواو أعمق من مجرَّد الرَّبط؛ إذ إنَّها تأتي للتَّوكيد والاهتمام[1]، فهي هنا تُسهم في تصوير المشهد البصريِّ المحيط بالحدث؛ إذ الحضور قائمون ينظرون إلى المحتضَر، لكنَّهم عاجزون عن الفعل، مقيَّدون بالبصر، لا بالقدرة، فجاءت الحال مصوِّرةً لمفارقة عجيبة، فالرّوح تُنتزع، وأنتم تنظرون، لكن لا تملكون ردًّا ولا دفعًا.

فهذه الواو الحاليَّة تكشف عن مقام العجز والصَّمت القهريِّ، وتبرز مشهدًا مُفعمًا بالمفارقة، فحضورٌ بلا حيلة، وشهودٌ بلا

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 194.

سلطان، والنَّظر هنا ليس مجرَّد نظر عابر، بل هو نظرٌ متوتِّر، حابس للأنفاس، يُفاقم من وقع الموقف، ويُمهِّد للإنكار الَّذي سيأتي بعده: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ﴾.

فائدة الخطاب بالضَّمير المنفصل (أنتم):

وظيفة الضَّمير في إبراز التَّوبيخ وتخصيص العجز بالمخاطَبين

في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾، جاء استعمال الضَّمير المنفصل (أنتم) مع أنَّ الجملة تُفهم بدونه، فلم يقل: وحينئذٍ تنظرون؛ لأنَّ المراد ليس الإفهام، بل بلاغة الإفهام، فهذا الضَّمير المنفصل جيء به لأجل التَّوكيد والتَّقريع معًا، فحين يقول: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾، فكأنَّما يُشير إليهم بأصابع الخطاب، ويقول: أنتم، بأعينكم، بحضوركم، في تلك اللَّحظة، لا غيركم، تشهدون نزع الرّوح، وتنظرون، وتعجزون، وكأنَّ المخاطَب محاصر بحضورٍ ثقيل، لا يمكنه دفعه ولا الإنكار منه، وذكر أبو حيّان النَّحويُّ ﴿وَأَنتُمْ﴾: إشارة إلى جميع البشر[1]، وهذا من الاقتضاب كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النِّساء: 29][2].

ثمَّ إنَّ (أنتم) تقيم مقابلة ضمنيَّة مع ما بعدها من قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، فتُرسِّخ الفرق بين نظرٍ لا يُبصر، وقربٍ لا يُدرَك، فأنتم تنظرون، لكن لا تقدرون، ونحن أقرب، لكن لا تبصرون، فكان في الضَّمير تخصيص، وإبراز، وتحقير ضمنيٌّ لموقفهم.

دلالة إضافة الظَّرف إلى الظَّرف في ﴿حِينَئِذٍ﴾:

توكيد الظَّرفيَّة وتزامن العجز مع لحظة النَّزع ترسيخٌ لمفهومِ الأجل الثَّابت

في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾، جاء التَّعبير بتركيب إضافيٍّ بين ظرفين، (حين) و(إذ)، وهذا من أساليب العربيَّة الفصيحة الَّتي تُفيد تحقيق الظَّرفيَّة وتقويتها، وهو أبلغ من الاقتصار على أحد الظَّرفين وحده، فحين ظرف زمان مبهم يكتسب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 94.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 253.

التَّحديد بالإضافة، و(إذ) ظرف زمان ماضٍ يدلُّ على وقت معيَّن، فجاءت إضافة (حين) إلى (إذ)؛ ليصير معنى العبارة: أنتم في تلك اللَّحظة الحرجة الَّتي تقع؛ إذا بلغت النَّفس الحلقوم، تنظرون عاجزين، لا تملكون فعلًا ولا دفعًا.

وهذا التَّركيب يُفيد التوكيد الزَّمنيَّ الشَّديد، أي: إنَّ الحالة الَّتي تُنكر عليكم لا هي متأخِّرة عن وقت الفعل، ولا هي منفصلة عنه، بل أنتم في ذات الحين الَّذي تموت فيه النَّفس، تكتفون بالنَّظر، بلا حول ولا تدخُّل، فكان في هذه الإضافة بيان لتزامن النَّظرة العاجزة مع بلوغ الغاية المحتومة، وزيادة في إظهار الحُجَّة والضَّعف البشريِّ.

غرض تقديم ﴿حِينَئِذٍ﴾ على المسند ﴿تَنظُرُونَ﴾:

العناية بوقتِ النَّظر تهميش للمخاطَبين وبيانٌ لعجزِهم المطلق

قُدِّم الظَّرف ﴿حِينَئِذٍ﴾ على المسند ﴿تَنظُرُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾، وهو من قبيل تقديم بعض المتعلِّقات بالفعل عليه، وهو إبراز الظَّرف وتوكيد دلالته الزَّمنيَّة؛ ليكون هو محلَّ العناية والتَّصوير في المشهد، لا مجرَّد قيد زمنيٍّ تابع للفعل[1].

فالمعنى المقصود ليس مجرَّد أنَّكم تنظرون، بل أنَّكم في تلك اللَّحظة بعينها - حين تبلغ الرّوح الحلقوم، ويستحكم العجز - تنظرون، وتكتفون بالنَّظر، بلا قدرة ولا تدخُّل، فكان تقديم الظَّرف من باب الاهتمام به، وتعليق المعنى به، وإبراز هوله وهيبته.

وفيه أيضًا إيماء إلى ثبات الحال، فكأنَّكم في تلك اللَّحظة لا شأن لكم سوى النَّظر، لا تملكون غيره، فهو وصف لازِم لكم في ذلك الوقت، وتقديم الظَّرف هنا يُشبه ما يُعبَّر عنه في البلاغة بـ(القصر)، أي: إنَّ فعلكم في هذا الحين لا يتعدّى النَّظر، وهو نظر عاجز حائر لا يملك دفعًا ولا نفعًا.

(1) حسن طَبل، علم المعاني، ص: 132.

نوع التَّنوين في قوله: ﴿حِينَئِذٍ﴾:

تنوين العوض شكلٌ من الإيجاز مع تمام المعنى

التَّنوين في قوله تعالى: ﴿حِينَئِذٍ﴾ هو تنوين عوض، أي: إنَّه عِوَضٌ عن جملة كانت تُضاف إلى (إذ)، فحُذِفت تلك الجملة، وعوِّض عنها بالتَّنوين، والتَّقدير: (حين إذ تنظرون)، أي: في الوقت الَّذي تنظرون فيه، فحُذفت جملة ﴿تَنظُرُونَ﴾ بعد (إذ)، وأُضيفت (إذ) إلى (حين)، ثمَّ عوِّض عن تلك الجملة المحذوفة بتنوين في (إذ)، على وجه مخصوص في هذا الاستعمال الفصيح.

وهذا النَّوع من التَّنوين لا يُقصَد به تنكير، ولا هو للتَّكثير، بل هو أثر نحويٌّ يدلُّ على الحذف والتَّقدير، والغرض البلاغيُّ منه الإيجاز مع الإبقاء على المعنى، من غير إخلال بدقَّة التَّركيب.

بلاغة مجيء فعل النَّظر مثبتًا والإبصار منفيًّا:

النَّظر سلوك العين والإبصار ثمرتها، ولا عبرة بالنَّظر؛ إن لم تصحبه ثمرته

اختيرت مفردة ﴿تَنظُرُونَ﴾ بدلًا من (تبصرون)، في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾؛ لأنَّ النَّظر أعمُّ وأشمل، وهو يُشير إلى مجرَّد توجيه البصر بلا فهم ولا إدراك، بينما الإبصار في الاستعمال القرآنيِّ غالبًا ما يدلُّ على رؤية مصحوبة بتبصُّر وعلم، فالواقع الَّذي أنتم فيه غير الحقيقة الَّتي تحيط بذلك الَّذي تخرج روحه أمامكم، فجاء استعمال ﴿تَنظُرُونَ﴾؛ ليُصوِّر حالهم عند الاحتضار؛ إذ عيون شاخصة، تحدِّق في المشهد، لكن لا فهم، ولا إدراك، ولا تصرُّف.

ثمَّ جاء بعدها قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾؛ ليدلَّ على أنَّهم وإن كانوا ينظرون، فلا يرَون الحقيقة كما هي، ولا يبصرون الغيب المحيط بهم، كاقتراب الملائكة وقضاء الله، فهو تقابل مقصود بين ظاهر النَّظر وعجز البصيرة؛ ليكتمل مشهد العجز والحيرة والانقطاع عن الفعل، ولتُقام عليهم الحُجَّة بأنَّ ما خفي عنهم أعظم ممّا شهدوه بعيونهم.

فالفرق بينهما أنَّ النَّظر بالعين تجاه الشَّيء المشاهد، والإبصار هو معاينته بإدراك حقيقيٍّ فلمّا أثبت النَّظر؛ أثبت لهم الفعل، ولمّا نفى الإبصار؛ نفى عنهم ثمرة النَّظر، فهو كماء لا يروي، وطعام لا يُشبع، وعين لا ترى.

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿تَنظُرُونَ﴾:

استحضار مشهد الاحتضار وتصويره حيًّا

التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿تَنظُرُونَ﴾ يُفيد استحضار الصّورة وزمن الحدث، فالمضارع يدلُّ على الحال تنصيصًا؛ وذلك لاقترانه بالظَّرف ﴿حِينَئِذٍ﴾[1]، ففي ذلك تفعيل لوقع المشهد في النَّفس؛ إذ يُرى النّاس بأبصارهم شاخصين، لا يملكون غير النَّظر، في حين أنَّ أمر المحتضَر قد خرج من أيديهم، فالمضارع هنا ليس مجرَّد دلالة زمنيَّة، بل هو أداة تصوير وتهييج، ترسم هيئة العجز في أنصع مشاهدها، فتبلغ الغاية من الزَّجر والتَّذكير.

نكتة حذف المتعلِّق بالفعل ﴿تَنظُرُونَ﴾:

نظر الحاضرين إلى مشهد الموت دهشةٌ عميقةٌ وعجزٌ قاهر وحالة ذهول

حُذِف المتعلِّق بالفعل ﴿تَنظُرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾؛ لعموم النَّظر وتعدُّد جهاته؛ ليشمل كلَّ ما يقع عليه البصر في تلك اللَّحظة، تنظرون إلى المحتضَر، إلى خروج روحه، إلى عجزكم، إلى مصير لا تُمسكونه، ولا تدفعونه، فالحذف هنا إيجاز إيقاعيٌّ مقصود، يُفجِّر المعنى ويوسِّع دلالته، ويحمل معنى التَّلبُّس بالحدث، في تغليب حالة الذُّهول والتَّشتُّت؛ إذ لا يكون النَّظر حينها مركَّزًا على شيء مخصوص، بل هو نظر حائر، مضطرب، ساكن في ظاهره، مضطرب في باطنه، فيتناسق المعنى مع جوِّ المشهد؛ إذ الموت حاضر، وناس ينظرون، ولا يملكون فعلًا ولا توجيهًا ولا قولًا.

نوع الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ في موضع الحال من

(1) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 256.

مفعول ﴿تَنظُرُونَ﴾ المحذوف[1]، والواو فيها هي واو الحال، وهي تفيد أنَّ هذه الجملة وقعت في زمن نظرهم العاجز، أي: وأنتم حينئذٍ تنظرون، والحال نحن أقرب إليه منكم.

واو الحال تُظهر المفارقة بين عجز البشر والقدرة الإلهيَّة المطلقة

ودلالة الواو هنا تكشف المفارقة الصّادمة، أنتم تنظرون، عاجزون لا تملكون ردَّ الرّوح، بينما نحن - أي: الملائكة - بأمر الله أقرب إلى المحتضَر منكم، حضورًا، وتصرُّفًا، وعلمًا، ولكنَّكم لا تبصرون.

فالواو هنا تربط بين حالتين متزامنتين؛ لتُبيِّن البون الشّاسع بين قدرة البشر المحدودة، وحضور القدرة الإلهيَّة الموكَّلة، في لحظة لا يملك فيها الإنسان شيئًا، سوى النَّظر.

فائدة التَّعبير بالضَّمير (نحن):

التَّعبير بالضَّمير (نحن)؛ لإفادة التَّعظيم وشدَّة الإحاطة

جاء التَّعبير بالضَّمير (نحن) في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ بدلًا من الاسم الظّاهر المنبئ عن الغيبة، مثل: (والله أقرب)؛ للإشعارِ بالعظمة والجلال، وبالقرب الذّاتي المستمرِّ، وبالمباشرة الإلهيَّة في التَّصرُّف، من غير توسُّط بشريٍّ، ويُحتَمل أن يكون المراد به الله ﷻ بعظمته وسلطانه، على أسلوب الجمع التَّعظيميِّ، أو ملائكته الموكَّلون بقبض الأرواح، فيكون التَّعبير بهذا الضَّمير أبلغ في تصوير الإحاطة والقرب الإلهيِّ من كلِّ جهة، وهي إحاطة لا تُبصرها الأبصار، وإن كانت أشدَّ حضورًا من شهودهم البصريِّ.

بلاغة الجملة الاسميَّة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾:

القرب الإلهيُّ ثابت مستمرٌّ في جميعِ الأحوال

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ احتراس؛ لبيان أنَّ ثمَّة حضورًا أقرب من حضورهم عند المحتضَر، وهو حضور التَّصريف لأحواله الباطنة[2]، وهذه الجملة الاسميَّة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ جاءت؛

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 344.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 344.

لإفادة الثَّبات والدَّيمومة، فليست قربًا طارئًا، ولا حضورًا عارضًا، بل هو قرب ثابت مستمرٌّ، لا يفارق الإنسان، خاصَّة في لحظات المصير، وهذا المعنى لا يؤدّيه الفعل وحده، بل تتحقَّق قوَّته باستعمال الجملة الاسميَّة الَّتي تُفيد الرُّسوخ والاستمرار.

فهي جملة قصيرة، لكنَّها تُحدث صدمة بيانيَّة في سياق يصف عجزَ الإنسانِ التّامَّ، وتقابل الجملة الاسميَّة الأخرى في السّياق: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾، وكأنَّ المعنى: أنتم تنظرون، ونحن أقرب، أنتم حائرون، ونحن مباشرون، أنتم غافلون، ونحن محيطون.

دلالة اختيار ﴿أَقْرَبُ﴾ مادَّة وصيغة:

في كلِّ لفظٍ دليلٌ على أنَّ القرآن كلامُ علّام الغيوب

اختيار لفظ ﴿أَقْرَبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، دون غيره من الألفاظ المشيرة إلى الحضور أو المصاحبة كـ(أدنى) أو (أحضر) أو (أشدُّ ملازمة) يحمل دلالة بلاغيَّة دقيقة؛ لأنَّ ﴿أَقْرَبُ﴾ اسم تفضيل يفيد المفاضلة الواضحة بين جهتين: جهة الله أو ملائكته، وجهة المخاطَبين، والمعنى: نحن لسنا قريبين منه فحسب، بل نحن أقرب إليه منكم، مع أنَّكم تنظرون، وتحيطون به حسّيًّا، فالإعلام بشدَّة القربِ دليلٌ على أنَّ المتكلِّم هو الله تعالى، فتفصيل القربِ الغيبيِّ لا يخطر على قلب بشر، فدلَّ على علّام الغيوب.

دلالة استعمال حرف (إلى):

تعجيز البشر أن ينفعوا المحتضَر بشيءٍ ليس له

استعمل النَّظم الكريمُ حرفَ الجرِّ (إلى)، في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾؛ ليُبيِّن أنَّ اقتراب أهل المحتَضَر مهما حاولوا الاقترابَ منه، فالله تعالى أقرب إليه منهم، فـ(إلى) حرف انتهاء الغاية، فأقرب غاية قد يصلها المقترب، فإنَّ الله أقرب إليه منهم، ففيه تعجيزٌ عن بلوغ القرب الإلهيِّ؛ لأنَّه قرب أحاط بكلِّ شيء، وبلغ التَّمام الَّذي لا يصله سوى الله تعالى، مع العلم والتَّصرُّف والإحاطة.

تعيين مرجع الضَّمير في قوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾:

عـودة الضَّميرِ إلى غير مذكورٍ بلاغة عالية في الآيات الزّاكية

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾ يعود على المذكور ضِمنًا في قوله: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، أي: بلغت الرّوحُ الحلقومَ، فالمقصود بـ﴿إِلَيۡهِ﴾ هو المحتضَر، أي: الإنسان الَّذي تُنتزع روحه، ويقول مجاهد: يعني: (الَّذي في الحلق)[1].

وقد دلَّ عليه السّياق من غير أن يُذكر صراحة، على طريقة الإيجاز القرآنيِّ البليغ، فجاء الضَّمير عائدًا على ذلك الإنسان المفهوم من سياق الموت والنَّزع والنَّظر، وهذا من دقَّة التَّعبير؛ إذ يُغني ذكر الحال والحدث عن ذكر الاسم، فيُكتفى بالإشارة إليه.

غرض تقديم ﴿إِلَيۡهِ﴾ على ﴿مِنكُمۡ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾ على ﴿مِنكُمۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾، باعتبار أنَّ المحتضَر هو المقصود بالكلام، لا هم، فقدِّم ما يتعلَّق به؛ لأنَّه مدار الاهتمام.

نوع (من) ودلالتها:

القرب البشريُّ في النَّفع الظّاهر وهُمٌ ظاهرٌ وفكرٌ حائر

حرف (مِن) في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾ هو (من) التَّفضيليَّة، الدّاخلة على المفضول في باب التَّفضيل، وهي تفيد بيان الجهة الَّتي وقع التَّفاضل معها، لا ابتداء الغاية، ولا التَّبعيض.

ودخول (من) التَّفضيليَّة هنا يُفيد أيضًا إبطال دعوى القرب البشريِّ، وتفنيد الاعتقاد بأنَّ أقرب النّاس حِسًّا هو أقربهم أثرًا أو نفعًا، فهي تفاضل بين قرب حقيقيٍّ غيبيٍّ، وقرب ظاهريٍّ حسّيٍّ، لا يُجدي في لحظة الفقد، وقد جاءت (من) بعد تقييد القرب بظرفه ﴿إِلَيۡهِ﴾، فتأخَّرت؛ لتُفَصِّل المفاضلة بعد تمام جهة التَّعلُّق، وهو ما يزيد المعنى دقَّة وتركيزًا.

(1) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 614.

نوع الواو في قوله: ﴿وَلَٰكِن﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ معترضة "وجملة: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ معترضة بين جملة: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، وجملة: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾، وكلمة ﴿فَلَوْلَآ﴾ الثّانية توكيد لفظيٌّ لنظيرها السّابق، أُعيد لتُبنى عليه جملة ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾؛ لطول الفصل"[1]، وتحتمل أن تكون عاطفة على الَّتي قبلها، وتحتمل أن تكون للحال، وهي تُصوِّر قصور الإدراك البشريِّ في لحظة المصير[2]، وتُقرِّر أنَّ حواسَّ الإنسان وإن كانت نشطة (فأنتم تنظرون) إلّا أنَّها لا تنفذ إلى الحقيقة (لا تبصرون).

انعدام الإبصار حقيقة ثابتة وإبصار الحقائق حالة طارئة

دلالة استعمال حرف الاستدراك:

جاء استعمال حرف الاستدراك (لكن)، في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾؛ لنقض ما قد يُتوهَّم من ظاهر الجملة السّابقة: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾؛ إذ قد يظنُّ السّامع أنَّ قرب الله أو ملائكته من المحتضَر أمرٌ مشهود[3]، أو محسوس لمن حوله، فجاء الاستدراك؛ ليزيل هذا التَّوهُّم، ويُبيِّن أنَّ قرب الله، وإن كان أصدق القُرب، فهو قربٌ غيبيٌّ لا تُدركه الأبصار، ولا تُحيط به الحواسُّ، ومعنى الجملة: ونحن أقرب إلى هذا المحتضَر منكم، ولكنَّكم لا تدركون ذلك؛ لجهلكم بقدرتنا النّافذة، وحكمتنا البالغة[4].

كشف حقيقة القرب الغيبيِّ ونقض توهُّم المشاهدة

فالاستدراك هنا يفصل بين ظاهر الحسِّ وحقيقة الحال، وبين ما يدركونه بنظرهم، وهم ينظرون إليه، وما لا يُبصرونه ممّا هو أعظم، وأقرب، وأشدُّ حضورًا.

وفي هذا الاستدراك أيضًا تقريعٌ خفيٌّ؛ إذ يُفهَم منه أنَّ عجزكم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 344.
(2) الرّاغب، وظيفة الصّورة الفنّيّة في القرآن، ص: 125.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 345.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 188.

عن الإبصار ليس لخفاء الحقِّ، بل لقصور البصيرة، فكأنَّ المعنى: نحن أقرب، ولكنَّكم مع ذلك لا تبصرون، مع أنَّ شهود القرب حقٌّ لمن له قلب أو ألقى السَّمع، وهو شهيد.

نوع فعل ﴿تُبْصِرُونَ﴾:

نفي البصيرة العلميَّة والإبصار الحسّيّ

فعل ﴿تُبْصِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ يدلُّ على نفي الرُّؤية المشتملة على البصيرة والإبصار، فهو ليس مجرَّد البصر، وهو فعل إدراك وتأمُّل ونفاذ إلى المعنى، لا مجرَّد تلقّي الصّورة الظّاهرة، فقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾، أي: لا تدركون كنه ما يجري عليه[1].

دلالة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تُبْصِرُونَ﴾:

الإبصار حالة مستمرَّةٌ في حالٍ مؤقَّتة

جاء التَّعبير بالفعل ﴿تُبْصِرُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ للدَّلالة على استمرار الإبصار في تلك الحالة، فهي تُفيد استمرار العجز وتجدُّد الغفلة في تلك الحال، والمضارع متَّسقٌ مع ما قبله: ﴿تَنظُرُونَ﴾، الَّذي يفيد مجرَّد توجيه البصر.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَلَوْلَآ﴾:

بلاغة فاء التَّفريع في (فلولا) وربطها بين التَّوبيخ والتَّحدّي بالحجَّة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ﴾ تفريعيَّة، وقد وقعت في موضعين في هذا السّياق، وهي تدلُّ على أنَّ ما بعدها مترتِّب على ما قبلها من توبيخ أو حُجَّة، أو حال تقتضي التَّعجيب والتَّقريع، ففي قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾، تفريعٌ على ما سلف من ذمِّهم على التَّكذيب بالقرآن والتَّهاون في أمره، كأنَّ المعنى: فإذا كان هذا موقفكم من الحديث العظيم، فلِمَ لم تُظهِروا قدرتكم عند لحظة الموت؟ وجاءت الفاء؛ لتُبرز هذا الانتقال كضرورة عقليَّة، لا مجرَّد تتابع لفظيٍّ، ثمَّ في قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾، جاءت الفاء؛ لتربط بين

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 183.

ادِّعائهم الاستغناء أو الإنكار للجزاء، وبين التَّحدّي الإلهيِّ لهم بردِّ الرّوح؛ إن كانوا صادقين، فهي تفريع على ادِّعائهم الباطل، وسياق التَّوبيخ عليهم.

فالفاء هنا تُؤدّي وظيفة رابطة بين مقام الذَّمِّ ومقام الإلزام بالحُجَّة، أي: إذا كنتم تزعمون أمورًا كهذه، فهلّا أظهرتم صدق دعواكم عند هذا الموضع الَّذي لا يُكذِّب أحد فيه، ولا ينفع فيه التَّظاهر؟.

دلالة حرف التَّحضيض وتكراره:

أفـادت (لـولا) التَّعجيز وكشف الضَّعف البشريِّ بـالـتَّـقـريـع التَّهكُّميِّ

حرف التَّحضيض في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ﴾ جاء في موضعين متتالين، ودلالته في هذا السّياق ليست مجرَّد التَّحضيض بمعناه المعروف في الحثِّ على الفعل، بل هو تحضيضٌ تهكُّميٌّ تقريعيٌّ، يُراد به الإنكار والتَّوبيخ لا الحثُّ الحقيقيُّ، وهو أسلوب قرآنيٌّ بليغ، يُستخدم في مواطن التَّحدّي حين تُنقض الدَّعوى بالفعل، أو تُفضح بالعجز[1].

فقوله: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، معناه: فهلّا رددتم الرّوح حينئذٍ؟ وهو إنكاريٌّ، يُظهر عجزهم الكامل عند بلوغ الرّوح الحلقوم، ويُهيّئ لما بعده من التَّحدّي.

ثمَّ جاء التَّكرار في: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾، فجاء هذا التَّحضيض الثّاني أصرح في كشف عجزهم وتفنيد زعمهم الهروب من سلطان الحساب والجزاء، ومعنى ﴿غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾، أي: غير مربوبين أو غير مجزيّين، فإن كنتم على زعمكم أحرارًا من الدَّينونة والبعث، فهلّا ترجعونها؟.

نكتة استعمال ﴿إن﴾:

التَّشكيك بأوهام المشركين يُناسبه (إن) المـومـئـة بمعنى التَّهكُّم

نكتة استعمال ﴿إن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ دون (إذا)، أنَّ ﴿إن﴾ شرطيَّة تفيد التَّعليق على أمر مشكوك فيه أو

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 343.

مزعوم الوقوع[1]، بخلاف (إذا) الَّتي تفيد التَّحقيق ووقوع الفعل قطعًا[2]، فالسّياق هنا ليس إخبارًا عن أمر حاصل، بل هو في مقام التَّهكُّم والتَّحدّي والتَّقريع، كأنَّ الخطاب يقول: إن كنتم - على زعمكم - غير مربوبين، غير مجزيّين، كما تدَّعون، فلِمَ لا تردّون الرّوح؟ فجاءت ﴿إِن﴾ لا (إذا)؛ لأنَّ القرآن لا يسلِّم بادِّعائهم، بل يشكِّك فيه، وينقضه، فهي ﴿إِن﴾ المعلقة على فرضٍ باطلٍ لا يُقرُّه المتكلِّم، وجيء بها في سياق الاحتجاج عليهم لا التَّسليم لهم.

تقدم ﴿إِن﴾ على عاملها ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾:

العامل في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ فعلُ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾، والتَّقدير: "فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم؛ إن كُنتُم غيرَ مَدينينَ"[3]، فتقدُّم ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ على عاملها ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾؛ للتَّشويق وإثارة التَّحدّي قبل عرض الفعل المطلوب[4]، فقد قُدِّمت جملة الشَّرط: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾؛ لإثارة التَّرقُّب لما سيُطلب بعدها، فالخطاب يهيّئ السّامع لجوابٍ مصيريٍّ، ثمَّ يفاجئه بالفعل المتحدَّى به: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾، وهذا أبلغ في التَّقريع؛ لأنَّه يُمهِّد له بما يشبه التَّسليم بفرض الخصم، ثمَّ يُسقطه بالفعل الَّذي يعجز عنه، وتعجيل توهين دعواهم قبل عرض التَّحدّي، فقد جيء بجملة الشَّرط أوَّلًا للتَّشكيك في أصل ما يزعمونه من أنَّهم غير مدينين، أي: غير خاضعين للبعث أو الجزاء، ثمَّ عُقِّب بها بالفعل الَّذي يُفترض أن يترتَّب على دعواهم لو كانت حقًّا: أن يردّوا الرّوح.

توبيخ مدَّعي الإفلات من الجزاء بتشويقهم بشرطٍ تهكُّميٍّ

غرض الجملة الشَّرطية ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾:

جملة: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ جاءت على أسلوب التَّهكُّم

(1) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 9/ 4.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 149.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 468.
(4) حسن طبل، علم المعاني، ص: 129.

والتَّقريع، وهي في ظاهرها شرط، لكن المقصود بها نقض دعوى القوم الَّذين يُنكرون البعث والحساب، ويزعمون أنَّهم غير مربوبين، ولا مجزيّين على أعمالهم، ففي لفظ ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ دلالة صريحة على إنكارهم للجزاء؛ إذ (المدين) هو من دان له غيره أو دينَ هو ليُجازى، والمعنى: إن كنتم حقًّا غير محاسَبين ولا مجزيّين ولا مرجوعين إلى ربٍّ، كما تزعمون؛ فأرجعوا الرّوح إلى الجسد.

التَّهكُّم من أغراض الشَّرط في سياق الاستدلال على المعاني القطعيَّة

بلاغة التَّعبير بمفردة ﴿مَدِينِينَ﴾:

التَّعبير بمفردة ﴿مَدِينِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ يحمل بلاغة عميقة في اختيار لفظ جامع الدَّلالة، دقيق الإيحاء، مناسب للسّياق الحواريِّ الجدليِّ في الآيات، فلفظ ﴿مَدِينِينَ﴾ مأخوذ من (الدَّين)، وهو في أصل معناه الجزاء والمجازاة، أي: المحاسبة[1]، فيكون الإنسان محكومًا عليه بحساب أو مؤاخذة، فمدين بمعنى: مجازى، مربوب، محكوم، وجاء بصيغة اسم المفعول؛ للدَّلالة على أنَّ الإنسان واقع تحت سلطان أعلى، وتحت نظام جزاء لا ينفكُّ عنه.

كثرة المعاني المرادة واللّازمة عنها جامعةٌ للمطلوبِ وكاشفةٌ عن المقصود

واختيار هذه المفردة دون رديفاتها نحو (محاسَبين) أو (مجزيّين) أو (مبعوثين) له نكتة بلاغيَّة، فهي أجمعُ لمعاني الرِّقِّ والحساب والحكم والتَّدبير والجزاء، وكأنَّ منكر البعث يُنكِر كلَّ ما يقتضي أن يكون مملوكًا لله، مُدانًا له، خاضعًا لحسابه وسلطانه.

وجعل في (الكشّاف) معنى ﴿مَدِينِينَ﴾ مربوبين أو مملوكين لله[2]، وبذلك فسَّره الفرّاء، وقال ابن عطيَّة: إنَّه أصحُّ ما يقال في معنى اللَّفظة هنا، ومن عبَّر بمجازَى أو بمحاسب، فذلك هنا قلق[3]،

(1) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/ 646.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 470.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 253.

والصَّحيح أنَّ التَّفسير بالجزاء والحساب من آثار المربوبيَّة فيرتفع القلق، فإنَّ التَّفسير بأصل المعنى وامتداداته المرادة واللّازمة عنه من بيان القرآن.

بلاغة اختيار مفردة ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾:

الـدَّلالـة على ردِّ الـرّوح قبل مفارقتها التّامَّة

آثر النَّظم الكريم مفردة ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾، في قوله تعالى: ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ دون (تعيدونها)؛ لما في لفظ (الرُّجوع) من دقَّة معنويَّة وتناسب بلاغيٍّ مع السّياق، فالفعل (ترجعون) يدلُّ على ردِّ الشَّيء إلى مكانه أو موضعه بعد أن جاوزه، أو خرج عنه، وهو أنسب في وصف حال الرّوح الَّتي بلغت الحلقوم، فهي قد أشرفت على الخروج من الجسد، وكادت أن تُفارقه، فالمطلوب - في تحدّيهم - أن يُرجعوها إلى موضعها السّابق، لا أن (يُعيدوها) بعد مفارقة كاملة، هذا فضلًا عن أنَّ الرُّجوع في القرآن مستخدم في مواضع الموت والرُّجوع منه مثل قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: 36]، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ [يونس: 23]، يعني الموت ونحوه كثير، وقوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ [العلق: 8]، ومعنى الرُّجوع إلى الدُّنيا مثل قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنبياء: 95]، أي: لا يردّون إلى حين المعاد، وهذه الآية أيضًا[1]، ففيه تلويحٌ بالرُّجوع يوم القيامة، فدلَّ على اختصاص الإرجاع بالله تعالى وحده، كما دلَّ على اختصاص الرُّجوع بذلك اليوم وحده.

تعيين مرجع الضَّمير في قوله: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾:

الـــرّوح من الغيب المحض، فإرجاعها من المحال المحض

مرجع الضَّمير في قوله تعالى: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ هو الرّوح[2]، وإن لم تُذكر صراحةً، بل دلَّ عليها السّياق والمقام، الدّالُّ عليه التّاء في قوله: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾[3]، فقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾،

(1) الدّامغانيّ، قاموس القرآن: 27/ 346.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 468.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 345.

أي: بلغت الرّوح الحلقوم، فـ﴿بَلَغَتِ﴾ فاعلها مؤنَّث يعود على الرّوح المضمرة في السّياق، كما هو مألوف في التَّعبير القرآنيِّ؛ إذ يُعبَّر عنها بضمائر التَّأنيث دون التَّصريح باسمها، فكان السّياق في تمامه، إذا بلغت الرّوح الحلقوم، وأنتم تنظرون، فهلّا إن كُنتُم غَيرَ مَدينينَ ترجعونها، أي: ترجعون الرّوح إلى الجسد.

دلالة استعمال ﴿إن﴾:

استعمال (إن) للتَّشكيك في صدق دعواهم وإبراز المفارقة بين زعمهم وعجزهم

استعمال ﴿إن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ دون (إذا) يدلُّ على التَّشكيك في صدق دعواهم، لا التَّسليم به؛ لأنَّ ﴿إن﴾ شرطيَّة تدلُّ على احتمال الوقوع، وربَّما على التَّوهُّم، بخلاف (إذا) الَّتي تدلُّ على التَّحقُّق والوقوع المقطوع به[1]، فجاءت ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ لا على سبيل التَّسليم بصدقهم، بل على وجه التَّهكُّم والتَّقريع، كأنَّ المعنى: إن كنتم - على زعمكم - غير مربوبين، فبيِّنوا صدقكم في هذه اللَّحظة الحاسمة، فأرجعوا الرّوح، والمقام مقام تحدٍّ وإفحام، فناسبه استعمال ﴿إن﴾ الَّتي تُعلِّق الأمر على شرطٍ غير متحقِّق؛ لتُفجِّر المفارقة بين زعمهم وبين واقعهم العاجز بلغة موجزة.

نكتة ذكر ﴿كُنتُمْ﴾:

إظهار الدَّعوى كصفة مزعومة ثابتة تُفضَح عند التَّحدّي

ذكر فعل ﴿كُنتُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لإفادة تعليق صدقهم على كينونة ثابتة، لا على مصادفة عارضة، فالسُّؤال ليس: إن صدقتم الآن، بل إن كان الصِّدق وصفًا راسخًا لكم، ودعوى قائمة بأنَّكم أهل صدق فيما تزعمون، فجاءت ﴿كُنتُمْ﴾؛ لتُصوِّر دعواهم كأنَّها ادِّعاء قديم مستمرٌّ، ينسبونه إلى أنفسهم في مواضع كثيرة، ومنها إنكار الجزاء وتكذيب القرآن، فالتَّعليق بالفعل ﴿كُنتُمْ﴾ يُفيد ثبات الصِّفة المدَّعاة؛ ليكون في ذلك تعرية

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 149.

لهذه الدَّعوى، وبيان أنَّها لا تصمد في مقام الفعل، ولا تثبت عند لحظة التَّحدّي.

فائدة استعمال مفردة ﴿صَٰدِقِينَ﴾ مادَّة وصيغة:

ربط التَّحدّي بدعواهم الثّابتة بالصِّدق وفضح عجزهم

جمعت مفردة ﴿صَٰدِقِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بين الإفحام والاحتجاج والتَّعجيز، أمّا من جهة المادَّة (صدق)؛ فهي الكلمة الَّتي يتباهى بها المشكِّكون؛ إذ كانوا يتَّهمون النَّبيَّ ﷺ، بالكذب، ويزعمون لأنفسهم أنَّهم على الحقِّ، ويُكذِّبون بالبعث، ويصفون القرآن بأنَّه أساطير الأوَّلين، فجاء الخطاب؛ ليعلِّق التَّحدّي بأهمِّ دعواهم (الصِّدق).

وأمّا من جهة الصّيغة (اسم الفاعل)؛ فإنَّها تدلُّ على الثَّبات في الصِّفة، لا على صدق عارض أو قول اتِّفاقيٍّ، بل على أنَّ الصِّدق سجيَّتهم المزعومة، فالتَّعبير بـ﴿صَٰدِقِينَ﴾ يدلُّ على دعوى الرُّسوخ في الصِّدق؛ لتُبنى عليها الحجَّة، فالمعنى: إن كان هذا وصفكم الثّابت؛ فأقيموا الدَّليل على دعواكم، وأرجعوا الرّوح؛ إن كنتم صادقين.

غرض حذف المتعلَّق بـ﴿صَٰدِقِينَ﴾:

توسيع مجال التَّحدّي وتعميم فضح كلّ دعاويهم في آن واحد

في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، حذف المتعلَّق بـ﴿صَٰدِقِينَ﴾؛ لنُكتةٍ بديعة، والغرض منه الإيجاز مع التَّهويل والتَّوسعة في وجه التَّحدّي؛ إذ لو قُيِّد المتعلَّق؛ فقيل: (صادقين في إنكار البعث)؛ لانحصرت الدَّعوى في معنى بعينه، لكن بحذف المتعلَّق بقي الوصف مطلقًا، أي: إن كنتم صادقين في أيٍّ من مزاعمكم - سواء في قولكم: إنَّكم غير مدينين، أو في أنَّ هذه الرّوح يمكن ردُّها، أو أنَّ ما يُتلى عليكم ليس بكلام الله، أو أنَّكم على حقٍّ - فأرونا البرهان.

فهذا الحذف أعمُّ وأبلغ في التَّوبيخ؛ لأنَّه يوسِّع مجال التَّحدّي، ويجعل كلَّ دعوى من دعاويهم داخلة تحت طائلة التَّكذيب، فيظهر عمق عجزهم وافتضاح كذبهم، وهذا الأسلوب جارٍ على طريقة

القرآن في الاحتجاج المقرون بالهيبة والتَّقريع، على نحو ما في قوله: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: 23]؛ إذ لا يُذكَر المتعلَّق بالصِّدق؛ لتبقى الدَّعوى مفتوحة على اتِّساعها، لا مفرَّ منها ولا موارِبة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرجاع والإعادة:

الرُّجوع لحال أو مكان من غير معاودة، أمّا العود؛ فرجوع مع معاودة

الإعادة تدلُّ في أصل وضعها على إعادة الشَّيء إلى حالٍ كان عليها من قبل، فهي استرجاع للصّورة الأولى أو الهيئة السّابقة، والعود: الرُّجوع إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه، إمّا انصرافًا بالذّات أو بالقول والعزيمة[1]، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون: 107]، ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28]، ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۗ﴾ [المائدة: 95]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الرّوم: 27].

والرُّجوعُ: العود إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله، فالرُّجوعُ: العود، والرَّجعُ: الإعادة، وفي العود إلى الدُّنيا بعد الممات، والرِّجاعُ: مختصٌّ برجوع الطَّير بعد قطاعها، فمن الرُّجوع قوله تعالى: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [المنافقون: 8]، ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ﴾ [يوسف: 63]، ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: 150]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [الأنعام: 164]، يصحُّ أن يكون من الرُّجوعِ، كقوله: (ثُمَّ إليهِ ترجِعونَ)، ويصحُّ أن يكون من (الرَّجع)، كقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2].

فالفرق بينهما دقيق، وهو أنَّ الرُّجوع يكون لحالةٍ سابقة من غير معاودة، بخلاف العود فهو الرُّجوع مع معاودة في الغالب.

(1) الراغب، المفردات، ص: 593، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 3/ 136.
(2) الراغب، المفردات، ص: 343.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"